Journal Of the Iraqia University (75-6) March (2026)

ISSN(Print): 1813-4521 OnIine ISSN:2663-7502
Journal Of the Iraqia University
available online at: https://www.mabdaa.edu.iq

البيئة الأندلسية وأثرها في الشاعر

م. د. حيدر صاحب كاظم ألبودكة
جامعة كربلاء كلية التربية للعلوم الإنسانية

شـهدت الأندلس تطوراً ملحوظاً في موضـوعات الشـعر, عن مثيلتها في المشـرق العربي, والمتأمل في أشـعار الطبيعة يلحظ كيف كان الشـاعر يمازج بين الطبيعة وموضـوعات الشـعر الأخرى, مثل: المديح, والغزل, وهو ما يبيّن لنا رغبة الشاعر الأندلسي في التماهي مع الطبيعة الجميلة التي اشتهرت بها المدن الأندلسية.

فقد سـيطر جمال الطبيعة على خيال الشـعراء وعواطفهم واسـتهوى عقولهم(١), ولعلّ ذلك نابع من كون الطبيعة "مصدر إلهام للشعراء يستمدّون منه صورهم, ويُثرون مُخيّلاتهم بتلك المناظر التي تراها أعينهم"(٢).

فقد جَمَعَ الشاعر بين الوصف المادي والوجداني, فجمال الطبيعة الأندلسية قد أخذ بلُبّ الشعراء وجعلهم يُقرنونهُ بالمحبوبة, فهذا الشاعر ابن السراج المالقي(٣) يصف لنا موضعاً مَرّ به هو وصاحبه فاستذكر محبوبته (أزهر) التي سحرت خياله وما استطاع أن يكتم ذكرها والتشبيب بها.

فها هو يشبّه صوت الماء هناك بصوت دموعه حينما يتذكر أيامه معها, من نحو ما قال:

[الطويل]

شَرِبْنا على ماءٍ كأنَّ خَريرَه
خَريرُ دمُوعي عندَ رؤيةِ أزهرِ
حَلَفْتُ بعينيها لقد سَفَكَتْ دَمي
بأطرافِ فُتّانٍ وألحاظِ جؤذرِ(٤)

نلحظ من البيتين السـابقين أنَّ "الطبيعة والشـاعر إلفان لا يفترقان, والحب يدعم هذه المشـاركة"(٥), فقد أعانت الطبيعة الشـاعر على اسـتذكار محبوبته وجعلتهُ يعبّر عمّا يختلج في نفسـه من مشـاعر وأحاسـيس فاضـت بها خيالاته وأحاسيسه(٦).

وفُتنت حمدة الوادي آشية(٧) بـــ(وادي آش)(٨), واستولى على قلبها, فقالت في وصفهِ شعراً ينمّ عن موهبة أدبية وفطرية, وخيال أخّاذ, عزّزهُ مقدرتها الأدبية التي تنمّ عن ذوق جميل وفطرة أدبية, فقالت:

[الوافر]

أباح الدمعُ أسراري بِوادي
به للحُسْن آثارٌ بَوادي
فَمِن نَهْرٍ يطوف بكلِّ روضٍ
ومِن رَوْض يطوفُ بكل وادي
ومن بين الظّباء مهاةُ إنس
سَبَتْ عَقلِي وقَدْ مَلَكَتْ فؤادي

لها لَحْظٌ تُرَقِّدُهُ لأمْرٍ

وَذَاكَ الأَمْرُ يَمْنَعني رقادي

إذا سَدَلَتْ ذوائبها عليها

كَمِثْلِ البَدْرِ في الظَّلَمِ الدّآدِي

تَخالُ الصُبْحَ ماتَ لَهُ خليلٌ

فَمِنْ حُزْنٍ تَسَرْبَلَ بِالحِدادِ(٩)

ويتجلّى خيال الشعراء في وصف المناخ وعناصره, ومقومات الطقس وتقلّباته, فهذا ابن الحناط الكفيف(١٠) يصف لنا الرعد وهطول الأمطار, وشدة الرياح, في رحلة صيد قضاها مع أحد الأمراء, من نحو ما قال: [الكامل]

فكأنَّ صوت الرعد خلفَ سحابةٍ

حادٍ إذا وَنَتِ السحائبُ صاحَا

مُرتجّةُ الأرجاءِ يَحبسُ سيرها

ثقلٌ فتعطيه الرياح سراحَا

أضفى مسالكها الظلام فأوقدت

مِنْ برقِها كي تهتدي مصباحَا

جادَتْ على التلعات فاكتسَت الربا

حُلَلاً أقامَ لها الربيع وشاحَا(١١)

فصدى الرعد مختبئ خلف سحابة ساعدتها الرياح على دَرّ المطر لتروي الأرض العطشى إيذاناً باستمرار حياتها, فقد رسم الشاعر صورة لنزول المطر, وهي تحكي للمتلقي المراحل التي تمرّ فيها هذه العملية, فجاءت ألفاظهُ مُعبّرة, أثارَها خياله السارح في أجواء الطبيعة التي لم ينفكّ الشعراء عن رسم الصورة الجميلة لها.

لقد اندمج الشاعر مع الطبيعة "بعد أن نفث فيها الحياة والشعور فأجابته وأجابها, وأخذ منها وأخذت منه, وعطفت عليه وعطف عليها, وشاركته آلامه وآماله وذكرياته وأحلامه, حتى كانت مظاهرها مسخّرة لهواه وحبّه, مفسِّرة لآلامهِ ومشاعره"(١٢).

فهذا ابن زيدون يذكر ولّادة بضاحية الزهراء(١٣), وما تموج به من مناظر خلابة, فتغمره اللوعة والألم على لقائها, ويُشرك الطبيعة التي طالما تجوّلا بين أشجارها وأزهارها في همومه وآلامه(١٤), فيقول:

[البسيط]

إنّي ذَكَرتُكِ بِالزَّهْراءَ مُشتاقاً وَالأُفْقُ طَلقٌ وَمَرْأى الأَرضِ قَد رَاقَا

وَلِلنَسيمِ اعْتِلالٌ فِي أَصائِلِهِ كَأَنَّهُ رَقَّ لي فَاعتَلَّ إِشفَاقَا

وَالرَوضُ عَن مائِهِ الفِضِيِّ مُبتَسِمٌ كَما شَقَقتَ عَنِ اللَبّاتِ أَطوَاقَا

جَالَ النَّدَى فيهِ حَتّى مَالَ أَعنَاقا

نَلهُو بِما يَستَميلُ العَيْنَ مِنْ زَهَرٍ

بَكَتْ لِمَا بي فَجَالَ الدَّمْعُ رَقْرَاقا

كَأَنَّ أَعيُنَهُ إِذْ عَايَنَتْ أَرَقِي

فَازدادَ مِنْهُ الضُّحى في العَيْنِ إِشْرَاقا[١٥]

وَرْدٌ تَأَلَّقَ في ضَاحِي مَنابِتِهِ

الطبيعة الأندلسية مصدر إلهام للشعراء, يستمدّون منها الصور, ويُثرون مخيّلاتهم بتلك المناظر الجميلة, ويتجلّى خيال الشعراء في وصف الوادي, ووصف المناخ, ومقومات الطقس وتقلباته.

فقد اندمجَ الشاعر مع البيئة الأندلسية حتى كانت مظاهرها مسخَّرة لهواه وحبّهِ وهمومه وما يعتلج صدره من مشاعر وآلام.

الهوامش:

(١) ينظر: التجديد في الأدب الأندلسي, د. باقر سماكة: ٣٦.

(٢) حركة الشعر في مصر الفاطمية: ٤٢.

(٣) ابن السراج المالقي: هو محمد بن السراج المالقي, يُنسب إلى مالقة, أديب مشهور, له أشعار في مدح الحموديين ووزيرهم ابن بقنة. ينظر: جذوة المقتبس, ج٢: ١٠٦, و الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ج١: ٦٠٩.

(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ج١: ٦٦٠.

(٥) الطبيعة في الشعر الأندلسي, د. جودت الركابي: ٣٦.

(٦) ينظر: المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٧) حمدة الوادي آشية: من أهل وادي آش في غرناطة, وهي من الشواعر المتأدبات, ولُقبت بخنساء الأندلس. ينظر: نزهة الجلساء في أخبار النساء: ٩٣.

(٨) وادي آش: وهي مدينة الأشات بالأندلس, تتماز بطبيعتها الأخاذة ومناخها المعتدل. ينظر: معجم البلدان, ج١: ١٩٨.

(٩) نزهة الجلساء في أخبار النساء: ٩٨ وما بعدها.

(١٠) ابن الحناط الكفيف: هو أبو عبد الله محمد بن سليمان الكفيف, كان متقدماً في الأدب والبلاغة والشعر, وزعيم من زعماء النظم والنثر في عصره. ينظر: جذوة المقتبس, ج٢: ١٠١ و ١٠٣, و الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, ج١: ٣٣٨.

(١١) خريدة القصر وجريدة العصر, ج٢: ٢٢٣ و٢٤١.

(١٢) ابن زيدون (عصره, حياته, أدبه), حسن جاد حسن: ١٣٩.

(١٣) الزهراء: مدينة قرب قرطبة بالأندلس, اختطها عبد الرحمن الثالث, وأنفق في عمارتها من الأموال ما تجاوز حدّ الإسراف. ينظر: معجم البلدان, ج٣: ١٦١.

(١٤) عصر الدول والإمارات (الأندلس), د. شوقي ضيف: ٢٨٤.

(١٥) ديوان ابن زيدون ورسائله, شرح وتحقيق: علي عبد العظيم: ١٣٩.

المصادر والمراجع:

- ابن زيدون (عصره, حياته, أدبه), حسن جاد حسن, المطبعة المنيرية بالأزهر, ١٩٥٥م.

- التجديد في الأدب الأندلسي, د. باقر سماكة, دار الجنائن, بغداد, ط١, ١٩٧١م.
- جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس, أبو عبد الله محمد بن فتوح الحميدي, دار الغرب الإسلامي, القاهرة.
- حركة الشعر في مصر الفاطمية (٣٥٨-٤٢٧هـ), محمد حسين عبد الله المهداوي, دار الكتب, العراق.
- ديوان ابن زيدون ورسائله, شرح وتحقيق: علي عبد العظيم, مطبعة نهضة مصر.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, أبو الحسن علي بن بسام, تحقيق: د. إحسان عباس, دار الغرب الإسلامي, ط١, ٢٠٠٠م.
- الطبيعة في الشعر الأندلسي, د. جودت الركابي, مطبعة الترقي, دمشق, ط٢, ١٩٧٠م.
- عصر الدول والإمارات, د. شوقي ضيف, دار المعارف, مصر, ط٥, ٢٠٠٩م.
- معجم البلدان, شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (٦٢٦هـ), دار صادر, بيروت, ط٢, ١٩٩٥م.